

# رِحْلَةُ بَكْرِهَام

## في العراق

نقلها الى العربية  
محمد علي حلاوي

### القسم الثاني

وفي اليوم الثاني من رجوعنا من الرحلة ، انتابني حمى شديدة بسبب الحر والارهاق الشديدين فلازمت الفراش فترة من الزمن ، كان خلالها مرافقي في السفر يعانِي وطأة المرض أيضا . ثم أخذت استعيد قواي ، ولكن لم يمض علي اسبوعان حتى انتكست ، ذلك ان المستر ريج طلب مني تعيين خط العرض لمدينة بغداد بواسطة قياس خط الزوال الشمسي (Meridian Altitude) عند الظهر فتعرضت للشمس فكانت تلك الانتكاسة الشديدة (١) .

وقد عنى الدكتور هاين (Hine) طبيب المقيمة بمعالجتي ، ولم يأل المستر ريج وعائلته جهدا في

(١) ان مشاهدة خط الزوال الشمسي في يوم ٤ آب ١٨١٦ لتعيين خط العرض لمدينة بغداد ، أظهرت النتائج الآتية :

دقيقة درجة		
ارتفاع الحافة السفلي للشمس عن الافق	٧٣	٤١
زاوية نصف قطر الشمس	١٦	
ارتفاع مركز الشمس عن الافق	٧٣	٥٧
البعد القطبي	٩٠	٠٠
بعد السميت	١٦	٣
ميل الشمس بالنسبة لارتفاعها في يوم الاعتدال	١٧	١٨
خط العرض	٣٣	٢١

ان استمرار شهر الصيام وبقاء صحتي على ذلك الضعف ، يضاف الى ذلك الحر الذي لا يطاق كانت عوامل كافية لتأخير رحلتي الى الهند الى ان تبدل الحالة وتؤاتيني الظروف الملائمة . وفي اثناء مرضي الاخير قدمت سفيتان الى البصرة من الهند ، الاولى اورورا (Aurora) التابعة لشركة الهند الشرقية وقد جلبت رسائل رسمية وأبحرت ثانية لتحمل مطران كلكتا من بومبي الى

رأس كبش رائع من العقيق كالاله أمون (Ammon) وبقرة أو ثور نحاسي كالاله ايسس (Apis) أو منفيس (Menvis) ، وتمثال لرجل جالس وعلى ركبتيه درج ملفوف مصنوع كله من النحاس بأسلوب مصرى محض ، وحجر قاشان معتم مثقوب طوليا ومغطى بكتابات ناعمة ، وغيرها من الآثار والملقطات الصغيرة .

ومن بين النقود مجموعة من المسكوكات الفضية التي عثر عليها في وعاء على شاطئ دجلة وقد انتقلت تلك المجموعة الى حوزة المستر ريج بصعوبة ذلك لان الباشا رغب في اخفاء حقيقة الكنز المكتشف في ولايته خشية ان يصل الخبر الى مسامع السلطان في استانبول مبالغا في قيمته ، فينتج عن ذلك أن يطالب السلطان بالتعويضات . لان جميع هذه الكنوز المكتشفة بهذه الطريقة من حقه الشرعي . وتلك المجموعة تحتوى على نقود يونانية وكورثية ، مع عدد من مسكوكات الاسكندر والابراطور انطيوخس . وهناك نقود فضية أخرى على وجهها صورة قلعة ذات ابراج تحتها أسدان وفي القفا صورة رجل يطعن حصانا في جبهته قرن ، وهذا الشكل غالبا ما يرى على منحوتات اصطخر ، فمن المحتمل ان هذه النقود عثر عليها في ذلك المكان . والى ذلك فقد وجدت أيضاً أوسمة ذهبية وفضية من العهد الساساني لسابور و اردشير ، ومجموعة من الاختام والخواتم والطلاسم مكتوب عليها عبارات دينية .

ومن الحقائق الثابتة حول هذه الاختام الاسطوانية البابلية التي كانت حسبما يظهر تزين الرقبة كالتماثيل المصرية ، ان أحدها عثر عليه ،

البغال والثانية الباخرة (Favourite) التابعة للبحرية الملكية البريطانية المعقودة اللواء للكابتن مود الذي استولى على سفينة انكليزية كانت تحمل عبيدا من مسقط ، وأبحرت بسرعة من البصرة حتى انى فقدت الامل باللحاق بها في الوقت المناسب .

ومما خفف علي وطأة العزلة تخفيفا كبيرا وجود مكتبة نفيسة عامرة بالكتب المفيدة في دار المستر ريج . والفيت أيضا فائدة و متعة في مجموعة الآثار الكثيرة القيمة التي أحرزها المستر ريج . وكان معظمها آثارا بابلية تتألف من الاختام الاسطوانية والتماثيل والحروز والتماثيل . ومما لفت نظري بوجه خاص الاختام الاسطوانية المثقوبة عند القاعدتين كما لو كانت تتدلى على الرقبة والنقوش التي عليها مصرية بحتة ، هذا الى آثار أخرى منها كرة مجنحة ، خطوط متماوجة من الماء ، زهرة اللوتس ، القمر ، كرة في قارب ، قرابين من الغزلان ، رؤوس الاكبش ، الهة مشعشة مثل أزيس (Isis) وكهنة في نفس الهيئة ، وآلهة على عروش مشابهة لعروش مصر ، مع خليط من الاشكال والرموز الاصطخرية ، وعلى معظمها كتابات بهيئة نصل السهم (Arrow-Headed) كالتى اكتشفت في خرائب اصطخر وبابل ونيوى<sup>(٢)</sup> . والى جانب تلك الآثار ، شاهدت

(٢) يريد انها كتابات مسمارية (Cuneiform) وقد فك رموزها عام ١٨٤٦ الرحالة الاثري الانكليزي السر هنرى رولنسن (H. C. Rawlinson) ومن يود الاطلاع على مراحل حل رموز الكتابة المسمارية وتطوراتها فليرجع الى كتاب :  
Wallis Budge, "Rise and Progress of Assyriology" [London, 1925].

اعتقاد بحكم توسطها بين هذين المصدرين الكبيرين لتخرافات ، الامر الذي جعلها تستقبل بين الحين والآخر بالالهة والمعائد والاساطير الغامضة وتتاثر بها .

ان الحر الشديد حال دون اقامة الاحتفال بمناسبة ميلاد الامير ولي العهد ( ١٢ آب ) ولكن حرس المقيم العام الهنود اقاموا استعراضا ، وأخذ الزوار والمهثون بملابسهم الرسمية يتوافدون الى الديوان حسب المراسيم المعتادة . وكان من بين هؤلاء الجماعة اثنان غريبان فقط ، احدهما طبيب جراح شاب جاء الى هنا من دمشق سعيا وراء عمله ، والآخر سكرتير القنصلية الفرنسية المسيو (M. Vigoroux) وكان منحرف الصحة آنذاك وراهب كبير السن هو رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، ورجل فارسي معمر يتذكر حصار نادر شاه لمدينة بغداد فقد ولد عام ١٧٢٠ ودرس في رومة وجاء هنا بصفة رئيس الكنيسة الارمنية في هذه المدينة . والى هؤلاء فقد جاء عدد من المسيحيين واليهود وأفراد من الدراويش .

ان نصارى بغداد قليلو العدد ، ولكن اليهود ، كما يقال ، يربو عددهم على عشرة آلاف في هذه المدينة وحدها ، ويلوح انهم أخذوا في التزايد في هذا القسم من العالم دون سائر الاقسام منذ سبي بابل ونيوى العظيمين عندما جيء باسلاف هؤلاء اليهود عبيدا ارقاء من فلسطين ، فحافظوا على سلالتهم بعدم التزاوج مع غيرهم ولم يخوضوا غمار حروب مدمرة لانهم يندر ان يشتركوا في نزاع وحرب مع اسيادهم .

من الرحلات المفيدة الى بلاد الشرق ، رحلة

البارون هالر (Baron Haller) الرحالة الالماني المعروف جيدا في اليونان ، في سهل ماراثون (Marathon) ، ومما لاشك فيه ان احدى الجيوش الفارسية تركتها هناك في ذلك اليوم التاريخي ومن المحتمل انها كانت لاحدى الفرق البابلية التي لاقت مصيرها المحتوم .

وكانت من بين النقود الفضية التي عثر عليها على شاطئ دجلة قطعة يشاهد على وجهها فرس البحر وعلى سطح الماء سفينة يونانية محملة بالرجال المسلحين مع الخوذ والدروع واما القفا فغير واضح بالمرّة . وعلى بعض النقود الاخرى صورة بوم بأرجل صقر ، وعلى البعض الاخر صورة رجل ملتج يقود فرسين في الماء ، ولعله يرمز الى الالهين مينيرفا (Minerva) ونبتون (Neptune) ، وعلى البعض الاخر صورة قلعة ، وعلى أخرى عربية جميلة يجرها حصانان عليها رجلان احدهما محارب والاخر سائق كالنحت المنقوش على كهف بيت الوالى فوق مساقط النيل في نوبيا .

ومن بين الآثار الغربية خاتم يزعم انه لاحد الخلفاء نقش في بغداد القديمة ويحتوى على الكلمات « يا الله ، بحروف كوفية كبيرة غائرة على مادة تشبه الاحتام القديمة . وهنالك خاتم بلورى عليه كتابات عبرية يسهل فك رموزها ولكنها غامضة في كليتها ، وقد ادعى الذين عثروا عليه انه خاتم سليمان ؛ وغالب الظن انه خاتم أحد اليهود القرائين في بابل من ذوى المنزلة المرموقة . ومجموعة الآثار البابلية هذه ذات علاقة وتقى بالرموز المصرية من جانب وبالرموز الهندية من جانب اخر وهى تدل على ما كانت عليه بابل من

(Resen) المذكورة في العهد القديم • وعلى مسيرة يوم منها تقوم خرائب بابل ويشير بعموض الى قصر نبوخذنصر الذي لا يمكن الدخول اليه لكثرة الحيات والحيوانات الكاسرة ، ويشير أيضا الى اطلال المجيلة حيث كان على ما يظهر يقوم القصر والجنائن المعلقة ، وهو القسم الاوحد من هذه المنطقة الذي يدعى بابل حتى الوقت الحاضر • وهو يميز بوضوح بين هذا وبين برج بابل<sup>(٥)</sup>

(Tower of Babel) الذي يصفه بقوله انه بعد أربعة أيام من الرحلة ، وكان يسكن الرحلة حينذاك عشرة آلاف يهودى وهو عين عددهم في بغداد اليوم ، والرقم الذي يورده بنيسامين عن سكان بغداد في أيامه يساوى عددهم تقريبا اليوم في الرحلة ، ويظهر ان مجموع عددهم في المدينتين لم يزد ولم ينقص ، والاختلاف حصل في تغيير

#### الاسم

(رحلة ص ٧٠) ومنها الى قرية القنطرة فالرحلة • وقد قطع هذه المسافة ابن جبير في ثلاثة أيام وهى المدة التى قضاه بنيسامين بين بغداد وخرائب بابل ورأى الاستاذ العزاوى يتفق مع رأى المستشرق أوبر ماير فى ان جاعهيجان محرفة عن زيربان (Chermeyer. Land. Baby. 161) (رحلة بنيسامين الترجمة العربية ص ١٣٩) •

(٥) ظن بنيسامين مثل غيره من قدماء الرحالين ان الاثر المعروف بالبرس هو برج بابل الوارد ذكره فى التوراة والظاهر ان هذا الاعتقاد قديم جدا ••• ويقول ياقوت : « ان البرس موضع بارض بابل به آثار لنبوخذنصر وتل مفرط فى العلو يسمى صرح البرس » وقد دل التحقيق الحديث على ان هذا البرس (زقورة Ziggurat تدعى Entenen Anki ومعناها « بيت الحجر الاساسى للسماء والارض ، وكانت قائمة بمعبد مردوخ فى بابل وقد اكتشف بجانب البرس بقايا معبد الاله نوب رب الحكمة والاداب عند قدماء البابليين ) رحلة بنيسامين ص (١٤١) •

بنيسامين التليلي ، ويظهر لى ان ملاحظاته العامة الدقيقة اسيء اليها من غير حق ، فان كتابه الاصلى الذى دون بالعبرية لم يفهم بكامله لدى قراء كتب الرحلات<sup>(٣)</sup> •

وعلى بعد يومين من مدينة بغداد تقوم مدينة جاهيجان (Gehiaga) ويظن انها مدينة الفلوجة الحالية<sup>(٤)</sup> وقد ظنها بنيسامين انها مدينة رسن

(٣) يرى بعض الباحثين ومن بينهم الدكتور مصطفى جواد أن بنيسامين لم يزر العراق وان ما ورد فى كتابه انما استقاه من مصادر اخرى • وذكر بكنكهام ان بنيسامين بدأ رحلته عام ١١٧٣ م ولكن حسبما جاء فى

[ Jewish Encyclopedia Vol. III, p. 34 ] انه خرج من الاندلس عام ١١٦٠ ورجع عام ١١٧٣م أى ان رحلته استغرقت ثلاثة عشر عاما • وقد نقل بكنكهام ما ذكره بنيسامين عن بغداد • ولم نر حاجة الى ترجمة ما نقله ومن شاء الوقوف على ذلك فليرجع الى الترجمة العربية لرحلة بنيسامين المطبوعة فى بغداد ( المترجم ) •

(٤) وردت هذه اللفظة مصحفة فى اغلب نسخ رحلة بنيسامين • وظن بكنكهام انه اراد بها الفلوجة الحالية وهو وهم واضح بالنظر الى اتجاه طريق الرحلة • ومن رأى الاستاذ يعقوب سر كيس ان هذه اللفظة مصحفة عن « درزيجان » وهى قرية كبيرة يعين ياقوت موقعها تحت بغداد على دجلة بالجانب الغربى منها ، وبها سميت المدائن ، واصلها درزيدان فعربت على درزيجان •• أما الاستاذ عباس العزاوى فيرى انها محرفة عن « زيربان » القديمة وموقعها فى الاراضى المعروفة الآن بالسيافية فى الجانب الغربى من دجلة بازاء المدائن والرأى الاخير هو الارجح لان زيربان كانت فى ايام بنيسامين على طريق القوافل بين بغداد والرحلة مر بها واسهب فى وصفها ابن جبير ( رحلة ص ١٦٩ ) • وكانت هذه البلدة المرحلة الاولى من طريق الحج الكبرى التى كانت فى تلك الايام تنتهى بالكوفة قبل ايغالها فى الصحراء • فكان المسافر من بغداد يمر بقرية صرصر بالقرب من مشهد سلمان الفارسى ثم يدخل زيربان ومنها يصل قرية كانت تعرف الفراش وقد مر بها فتاحية حوالى ١١٨٣ فحرفها « فولاش »

وقد زرت في ليالي رمضان ، جميع المساجد في أوقات الصلاة عند المساء ، وكنت أمضي متجولا حتى منتصف الليل في الاسواق استريح في المقاهي •

ولم أشاهد بين جوامع بغداد كلها ما يمكن مقارنته بجوامع القاهرة أو القدس أو دمشق أو حلب أو ديار بكر • ان جامع الميدان الذي اجري عليه أخيرا بعض الترميمات والتزويق ذو منارة وقبة جميلتين ، وهو مزين بالكاشي الملون والرسوم والكتابات ، ولكن ليس في داخله ما يناظر جماله الخارجي عدا نظافته واطنائه اللطيفة ، وباستثناء ذلك لا يستحق وصفا خاصا •

وجامع الوزير يحاذي النهر قريبا من الجسر ، وهو واسع الارجاء ، له قبة جميلة يدل على ذلك مظهرها اللطيف من الخارج ، ولكن داخله قدر ويتطلب ترميمات كثيرة •

اما جامع الباشا فيقرب من جامع الوزير ويمتاز باضاءه الجيدة فالمصاييح الخارجية التي على حوض المنارة هي الوحيدة في كافة ارجاء المدينة التي تبقى مضيئة حتى مطلع النهار ، اما من حيث بنائه فلا يتميز بصفات بارزة ، وفن عمارته لا يدل على ذوق لطيف ، ومنارته مائلة الى درجة تبدو انها آيلة للسقوط • وأوسع جوامع بغداد ، جامع عبدالقادر ، ولعله أحسن جوامع بغداد ، ولكن ليس فيه ما يجلب الاهتمام سوى قبابه اللطيفة المسطحة التي تثير الإعجاب ، وهو أقل شأنا بكثير من جامع سليمان في القدس والجوامع النبيلة الاخرى في دمشق وحلب •

اما محلة الميدان فلم تخل من الازدحام كل

ويذكر بنيامين باسهاب وصف "Birs" (بورسيا) ، وهو بالاضافة الى تعيين بعده بدقة اجمالية باربعة أميال عن مدينة الحلة ، يقول انه مشيد بالطابوق الذي يدعى محليا بالآجر ابعاده (٨) انجات عرضا و (٦) انجات ثخنا و (١٢) انجا طولاً وهي قريبة الى الواقع ، ويبلغ طول أساساته ميلين • ويذكر عن مصاعده الملتوية التي تؤدي الى أعلى البرج والتي لا أثر لها الآن ومن القمة يمكن مشاهدة ما حوله الى مسافة عشرين ميلا وكله سهل منبسط ، ويستطرد بلغة الاقدمين في قوله ان « هذا المكان قد دمر بصاعقة من السماء » ذلك لانه رأى كتلا كبيرة مزججة ، ويقول ان القسم العلوي من البناء قد دمر ولم يبق منه الا الاقسام السفلية التي ارتقى قمتها • وعلى مسيرة نصف يوم مدينة نفاحة (Napheus) يسكنها حوالي مائتي يهودي وفيها كنيس وعلى بعد ثلاثة فراسخ يقوم قبر النبي حزقيال الذي لا يزال موجودا • وهذا مما لا يدع مجالا للشك في ان بنيامين قد زار شخصا « برس نمروود » الذي وصفه بدقة على اعتبار انها اطلال برج بابل •

ولولو لم أكن معتل الصحة ، ولو لا حرارة الجو غير الاعتيادية لزرت بعض الاماكن التي وصفت في هذا الكتاب ، نقلا عن أقدم كتب الرحلات ولاسيما ( الفلوجة ) وبعض مزارات اليهود المقدسة • ولكن لم يكن في وسعي ، وأنا على ما ذكرت ، ان أتجول في هذا الحر ، فخصصت معظم أوقاتي لقراءة الكتب الخفيفة لان قابليات الفرد الذهنية تعجز عن استيعاب المواضيع التي تتطلب جهدا وتركيزا في التفكير •

الهاديء حيث لا يعكر صفو وحدتى مخلوق ما ،  
وأصوات الفرح تنبعث من جانبي النهر المضاءتين  
على قدر ما تستطيع العين ملاحقة دجلة فى مجراه ،  
ومن المقاهى الكبيرة تقوم فى الجانب الشرقى قرب  
المدرسة المستنصرية ترى وكأنها شعلة من النار  
وتقابلها مقهى أكبر على الجانب الآخر من النهر  
قريبة من نهاية الجسر أيضا ، وبين هذين الصرحين  
يمتد جسر القوارب ، وعلى سطح النهر تطفو  
المشاغل المضاءة والقوارب الملأى بالمواد الملتهبة  
لتزيد فى روعة المنظر .

وفى أمسية يوم ١٩ آب حيث كانت السماء  
صافية ، اقترح أحدهم تعيين خط العرض لمدينة  
بغداد بواسطة قياس زاوية احدى النجوم المعينة  
للتأكيد صحة ودقة خط العرض المذكور المستخرج  
يوم ٤ آب . والآلة الوحيدة التى كان يقتها  
المستر ريج هي مزولة اعتيادية لقياس الزوايا وفيها  
خلل . ولو توافرت لدينا الآلات اللازمة لامكنا  
فى هذا الجو الصافى الرائع والفضاء المتسع الصالح  
للقياسات الفلكية تعيين خط العرض بدقة بالغة .  
ومع ذلك فاننا بدون آلة السدس ( Sextant )  
وساعة لقياس الوقت ( Chronometer ) وتلسكوب  
وتقويم فلكى ( زيج ) اضطررنا ان نقنع أنفسنا  
بالنتائج المستحصلة من مزولة قياس الزوايا فقط  
وبعض الجداول الرياضية الاعتيادية . وقد كان  
فى مقدورنا تعيين خط العرض وظهر لدينا انه  
٥٧° ٣٣' ، أى ان الفرق بين القياسين ضئيل ،  
واذا أردنا ان نأخذ بنظر الاعتبار الخلل البسيط  
فى الآلة الوحيدة التى لدينا لظهرت النتائج بين  
القياسين متطابقة .

ليلة يجتمع فيه الناس على مختلف طبقاتهم ليقضوا  
ساعات من المرح واللهو كالرقص والغناء .

والاسواق التى غالبا ما تهجر اثناء النهار ،  
تحتشد اثناء الليل بالناس المتجلبين بأحسن أرديتهم  
من الشال والمرعز الاتقري ، وهى فى جملتها تكون  
خليطا براقا من الالوان ، ما عدا العمائم التى تكاد  
جميعها ذات لون ابيض .

والكآبة الظاهرة التى تسيطر على الطرق  
المظلمة المعقودة بالطابوق اثناء الصباح ، ترى  
الآن مضاءة بالمصابيح والمشاعل فى كل حانوت  
ومقهى ، وكل شىء يبعث على الحياة والانسراح .  
وفى الواقع ان فى ليلالى رمضان فقط ترى اسواق  
بغداد تضاهاى ما يدركه المرء من الوصف الوارد  
فى كتب الف ليلة وليلة عن المدن الشرقية ؛ وكما  
بدت لى لاول وهلة كثية جرداء اثناء مرورى بها  
فى النهار ، تبددت خيبة الامل فاستمتعت كثيرا  
بتجوالى وانغمسى فى مرح الجماهير اثناء الليل .

ولكن المشهد الوحيد الذى أثار سرورى  
وارتياحى الى حد بعيد ، هو الوقوف فى منتصف  
جسر القوارب الممتد فوق دجلة ، حيث نسيم  
الفجر هادىء لا يعكر صفوه شىء ، والنهر يجرى  
بعظمة وروعة وقد انعكست على صفحة الماء السماء  
بنجومها البراقة .

وأستطيع ان أرى وانا على الجسر بعض  
الكسبة والعمال الذين انهكت قواهم جاءوا  
ليستريحوا من عناء العمل فى زورق يسير على  
وجه الماء الهادىء ، وانا غالبا ما آتى فى هذا  
الوقت من الليل فى ليلالى رمضان اتطلع من الجسر  
باعجاب هادىء الى السماء المرصعة بالنجوم والنهر

وعند رجوعنا الى دار التقيمية ، بلغ مسامعنا ان فتنة اندلعت في كركوك قتل فيها ممثل الباشا ينكجري أغا (Janisary Aga) مع ستين فردا من اتباعه واستولى العصاة على عدد كبير من البغال . وكان المستر ريج جالسا مع الباشا عندما بلغته هذه الاخبار ، وقد تلقاها الباشا بعدم مبالاة ودون أن يكثرث للامر ، ولم يستفهم جلية الموضوع بسؤال واحد . وهي عادة الأتراك لانهم يعتقدون انه من الخزي ان يضطرب اتزان المرء للحوادث البشرية .

ولم تكن ادارة مدينة بغداد المناطة بالباشا في يوم من الايام على شيء من القدرة على تحصيل الضرائب أو المحافظة على الامن الداخلي والخارجي ، وكانت الاموال قلما ترسل من خزينة المدينة الى استانبول ، ذلك لان الباشا فقير وغالبا ما يستدين المبالغ الصغيرة . ويعتقد ان الشاه زاده شقيق ملك بلاد فارس الأكبر والساكن في كرمشاه يسيطر على اراض شاسعة ، وله مطاعم ولعل نفسه تسول له يوما ما ان يضم بغداد الى ملكه ويجعلها عاصمة له ، والرأي الغالب بين معظم الجماعات القاطنين هنا ان بغداد غنيمة سهلة بالنسبة اليه .

وصل أخيرا مدينة بغداد سفير إيراني وهو مبعوث ملك تبريز ليعالج بعض القضايا مع باشا بغداد ، وقد سافر توا الى مدينة النجف لزيارة قبر الامام علي الشهير و ينتظر ان يرجع الى عاصمة بلاده ، وتراءى لي انها فرصة مناسبة للذهاب في حماية هذه القافلة الى طهران ومن ثم الى بوشهر . ان الحجاج الإيرانيين يلاقون المخاطر والاهوال اثناء زيارتهم ، اذ ان الاعراب غالبا ما يهاجمونهم ويعملون فيهم السلب والنهب . ولما يمض زمن

ونقرر في مساء يوم ٢٣ آب اعلان اليوم التالي عيدا فاطلقت المدافع بهذه المناسبة . وبالرغم من انه لم يكن في وسع احد رؤية القمر الجديد الذي تعتبر رؤيته ضرورة أساسية لاعلان العيد . الا ان شاهدين ذهبا الى المحكمة وأقسما أمام القاضي انهما شاهدا الهلال الجديد ، وكان ذلك كافيا لمعظم المؤمنين ان يجعلهم في حل من التزامهم بفريضة الصيام في اليوم التالي ، ولكن هنالك جماعات شديدة الورع والتقوى يعتبرون أنفسهم ملزمين بالصيام حتى يشاهدوا الهلال بأعينهم المجردة وهم أقلية ولهم نظائر في بقية الأقطار .

وفي صبيحة يوم ٢٤ آب خرج الباشا مع كبار موظفيه في احتفال عام الى الجامع ، يصحبهم حرس الباشا على ظهور خيولهم والموسيقى تعزف الحانها . والموكب بكليته يشبه تقريبا ما جاء في وصف بنيامين التليل لموكب الخليفة عند خروجه من القصر الى الجامع قبل سبعمائة عام ، فقليلاً ما تبدلت عادة هؤلاء القوم وأخلاقهم خلال تلك الحقبة الطويلة من القرون .

وصادف يوم ٢٥ آب عيد القديس لويس وقد زار المستر ريج والمستر هاين الباشا ، اما انا فقد صحبت مستر بيلنو الى الكنيسة الكاثوليكية حيث أقيم قداس على روح الملك لويس السادس عشر ، وأنشدت التراتيل بمناسبة رجوع أسرة بوربون الى العرش الفرنسي . وكانت الغرفة صغيرة ومزدحمة ولم يتم القداس بصورة مرضية بل بضوضاء وشكل غير مقبول ، شأن كافة أمور نصارى الشرق ، والاجتماع هذا يثير كافة المشاعر الا الشعور الديني .

يقول الدكتور فنسنت في كتابه "Dissertations on the Commerce of Arabia" بعد الفتح الاسلامي لبلاد فارس ، عمل على فتح طريق عبر شبه الجزيرة العربية من مكة الى الكوفة ، المدينة التاريخية التي ينسب اليها الخط الكوفي ، والتي لا زالت خرائبها بينة ، ومن بينها عمارات عربية قديمة ، قائمة بين ضريح الامام علي ونهر الفرات . ولقد قيل ان طول الطريق سبعمائة ميل ، تقوم عليه خانات للقوافل ويتكلم ابو الفداء عن طريق مكة - بغداد وطوله سبعمائة ميل ، فتحه الخليفة المهدي عام ١٦٩ للهجرة .

وخيل الى ان السفر الى بلاد فارس مع السفير الايراني فرصة ملائمة ، ولكن مدة بقائه في التجف غير محددة ، وفي البصرة لم يتوقع وصول باخرة حتى نهاية اكتوبر تصل في اثنائها طرادة من ميناء بومبي . ولهذا فقد ارتوى محافظة على صحتي وحرصا على الوقت الا اذهب الى البصرة عن طريق الفرات ، بل اذهب برا الى أحد الموانئ الايرانية ، ذلك لان شواطئ النهر لا تخلو من اللصوص وقطاع الطرق .

والطريق من بغداد الى بوشهر المار بشوستر ، لاح لي انه أقرب الطرق ، هذا الى كونه يمر باقليم سوسا عاصمة الملوك الفرس القدماء ، وتكثر فيه الآثار والاطلال . ولكن هذا الطريق غير مأمون ما لم يكن هنالك حراسة قوية أو قافلة كبيرة ، ولم تتوافر كلتاهما الآن عند ابتداء الرحيل . وفي بعثة السير جون مالكولم<sup>(٦)</sup> "Sir John Malcolm"

طويل بعد على هجوم الوهابيين على مدينة كربلاء واعمالهم السيف في رجالها ولم يسلم سوى النساء والاطفال ، وقد سرق الوهابيون مجوهرات وخزائن ضريح الامام الحسين المقدس لدى الشيعة .

وعندما يتوافد الحجاج الفرس الى بغداد ليرحلوا الى مكة عبر اراضي نجد ، يجب عليهم ان يحصلوا على ترخيص من الوهابيين . ولما كانت المسألة شخصية بينهم يعمدون عادة الى ارسال بعض الرجال الاكفاء للتفاوض في هذا الموضوع . وقد حدث في السنة الماضية ان قدم الفرس طلبا الى رئيس الوهابيين بالسماح لهم عبر اراضيهم . وكان الجواب بيد رسول وهابي ان عليهم ان يرغبوا في الحج ان يمشوا بمدينة ضرية حيث يقيم زعيم الوهابيين . ولعل الفرس ظنوا ان هذا الطلب مشينا ، أو له دافع آخر ، فقرروا المضي في طريقهم بعد ان عمدوا الى اساءة معاملة الرسول الوهابي ، دون الالتفات يمنة أو يسرة ، ولكن سرعان ما جابههم الوهابيون بعدد كبير من الرجال وقتلوا وجرحوا عددا كبيرا منهم وأجبر الباقون على الذهاب الى ضرية ، وقد فضل بعضهم الرجوع الى بغداد ، اما اولئك الذين اختاروا البقاء فساموهم يوما صنوف العذاب الى حين وصول قافلة تنقلهم الى مكة . ويقال ان ضرية مدينة كبيرة تقع على جبل مثل مارددين التي توازيها سكانا ومساحة وطراز بناء . وتقوم في الجنوب على الطريق المباشر من هنا الى مكة . وما يحيط بها صحراء جرداء بالرغم من وجود بعض البقع الخصبة .

(٦) مؤلف كتاب History of Persia from Earliest times to the Present Date [2 Vols; London, 1829].



للتعرف على أمور المجتمع وأحواله ، ومما ساعد على امتزاجي واختلاطي بكافة طبقات السكان هي ملابسى الاسيوية ولحيتى الطويلة ولغتي •

عند دخولى مدينة بغداد لأول مرة ، وجدت لدهشتى ان اللغة التركية سائدة أكثر من العربية<sup>(٧)</sup> بالرغم من ان هذه المدينة محاطة بالاعراب من كل جانب أكثر من مدينة دمشق وحلب والموصل والتي وجدت العربية سائدة فى جميعها ، واللغة التركية هنا محرفة ومشوشة فى اللفظ والمصطلح ، حتى ان المرء الساكن فى استانبول لا يفهمها عند سماعه اياها لأول مرة ، ولى من البراهين الكافية ان اللغة العربية هنا رديئة جدا ان اتخذنا لغة القاهرة ومكة واليمن قياسا حسنا فى اللفظ والنقاة • فالكلمات والمصطلحات التركية والفارسية والهندية والكردية تتمازج وتتداخل مع بعضها وتشكل بذلك خليطا غريبا من الكلمات غير المنسجمة •

ان الحركة الادبية هنا راكدة حتى انه ليصعب الحصول على مجموعة نفيسة من الكتب والمخطوطات فى المدينة كلها ، ولم أعر على أديب لامع ضليع بمعرفة شؤون بلاده • وكنت آمل فى الحصول على نسخة من كتاب الف ليلة وليلة سيما فى هذه المدينة التى طالما كانت مسرحا للتقصص التى تضمنها الكتاب نفسه ، ولكننى علمت انه من الصعوبة بمكان العثور على نسخة كاملة من هذا الكتاب ولاسيما بعد ان عرضت مبالغ سخية لاغرى

(٧) ان الاهالى ولا ريب كانوا يتكلمون العربية •  
واما التركية فقد كانت هى الغالبة فى دواوين  
الحكومة ( المترجم ) •

الى ملك الفرس ، ان خرج رجلا انكليزيان هما المستر كرات والمستر فوذرنگهام عبر هذا الطريق من بغداد الى اصفهان لدنى عودتهم الى الهند حيث كانا ملحقين بالخدمة العسكرية فى مدراس وفى طريقهم قتلها احد رؤساء قطاع الطرق • وقد كان عدد كبير منهم يعيث فسادا فى جبال تلك المنطقة وسهولها ، ومنذ ذلك الحين زادت سطوة هؤلاء القتلة والسفاكين وتفاقم بطشهم • ومن ثمة فالطريق الذى بقى مفتوحا امانى هو طريق الفواول الاعتيادى كرمشاه ، همدان واصفهان ولقد علمت ان قافلة ستشد الرحال فى بداية الشهر القادم فقررت الانضمام اليها •

وفى يوم ٢٦ آب زارنا أحد الدراويش القادمين من أقاصى شمال منطقة بختيارى القديمة، ووصف لنا مدينة بلخ الحالية الواقعة فى اقليم بختيارى وهى مدينة صغيرة ولكن فيها مدارس عديدة لتلقى العلم وجماعة من العلماء والباحثين ، وفيها مكتبة واسعة تضم نوادر الكتب الشرقية ، ولا يعلم هذا الدراويش تاريخ تأسيس هذه المكتبة، ولكنه يؤكد ان مجاميع الكتب التى تضمها كاملة • وعامة سكان بلخ مسلمون من السنة • وذكر مدينة بخارى وهى ، كما يقول ، مدينة تامة كبيرة كبغداد يسكنها مسنون منحدرين من القبائل الغولية ، فيها أيضا مدارس وعدد من العلماء ، ولكن مكتبتها ليست نظير مكتبة بلخ • وسمرقند وهى مدينة صغيرة الآن عدد سكانها أقل من المدينتين السابقتين واللغة التركية هى السائدة فى تلك الاصقاع •

وبقيت قبل رحيلى من بغداد اتحين الفرص

وجها خمارا أسود قاتما مما يوحي بالكآبة والحزن لمظهر النساء اللاتي قليلا ما يظهرن في الشوارع ، ولكنهن في بيوتهن يرتدين الملابس الزاهية الالوان والباهظة القيمة . اما طراز معيشتهم وأداء واجباتهن ، فهما على غرار ما تتبعه نساء المدن التركية الكبيرة .

ونرى من فوق سطح دارنا عند انبثاق الفجر أفراد العائلات التي تحيط بدارنا نائمين على سطوح بيوتهم ، ومن بين العائلات الغنية ينام الزوج على سرير فوقه مرتبة محشوة بالقطن والسرير دون ستار أو ناموسية ، وتنام الزوجة على فراش اخر على الارض غالبا وعلى مسافة معقولة من زوجها ، والاطفال أحيانا ينامون على فراش واحد ان كانوا ثلاثة أو اربعة ، ويستيقظ الجميع عند الفجر ولا يتأخر أحدهم بعد طلوع الشمس ، والكل يعنى بفراشه بعد النهوض فيطويه ويخمله معه الا الاطفال فان الخادمة أو الام تعنى بفراشهم . وهم اثناء النوم لا يتحررون من ملابسهم كالاوربيين فالرجال بقمصانهم وسراويلهم التحتانية القصيرة وأحيانا بقمصانهم ، وكذلك الاطفال والخدم يقعون بملابسهم الكاملة تقريبا ، اما الامهات والفتيات الشابات فيلبسن سراويلهن التركية الحريرية وعمائمهن اذا كن أغنياء .

وفي مناسبات عديدة شاهدنا مبلغ عناية الزوجات بأزواجهن ومبلغ الاحترام والخضوع التي تبديه الزوجة لزوجها . وفي الصباح عندما يضع الزوج ملابسه ويؤدي الصلاة ، يجلس على السجادة بينما تهيب الزوجة القهوة وتقدمها لزوجها بخضوع بالغ وتقف على بعد منه مكتفة الابدى ، وبعد

بعض من يقتونها في مكاتبهم الخاصة ببيعها .  
ن شرطة بغداد عديمة الكفاءة والمقدرة .  
وغالبا ما ينتهى الشجار والخلافات باراقة الدماء بين الاعراب القاطنين ، وليس من الغريب ان ترتكب جرائم القتل أمام قصر الباشا أو في أحد الجوامع الكبيرة دون أن يخشى المجرم ملاحقة العدالة له . ومنذ عودة المستر ريج من اوربا الى بغداد ، أى قبل ستة أشهر تقريبا ، ارتكب ما لا يقل عن اثنتي عشرة جريمة داخل المدينة وحدها واحداها وقعت قرب قصر الباشا ، والاخرى في مدخل جامع الشيخ عبدالقادر . وبالرغم من ان الجريمة ترتكب على مرأى من مئات الناس وفي رابعة النهار ، لم يكثر أحد للامر ولم يتدخل في موضوع معاقبة المجرم صيانة للامن العام بل ان الناس يقولون « انها قضية دم ، تتعلق بأقارب القتل الذين قد ينتقمون له ومن شؤون الباشا ان يحقق ، وليس من اختصاصنا التدخل في هذا الامر » .

وترتكب السرقات دون خوف ولا رهبة في مختلف ارجاء المدينة ، ويقان ان أحد التجار الاثرياء من المتفذين ييسط على هؤلاء السراق حمايته وانه يشتري مسروقاتهم فهم بذلك لا يخشون طائلة العقاب .

ونساء بغداد يلبسن الملابس الزرق المنقوشة على شكل مربعات كالمستعملة بين نساء الطبقة الدنيا في مصر ، وحتى نساء الطبقة العليا لا يستعملون ربطة الرقبة السوداء أو الوردية الشكل المستعملة في القاهرة ولا وشاح المسلمين الابيض المستعمل في دمشق ، يضاف الى ذلك ان المرأة هنا تسدل على

انتهاى الزوج من شرب القهوة تتناول زوجته القدح بمنى ما قدمته اليه وأحيانا تقبل يده علامة الاخلاص والخضوع التام • والنساء يؤدين الصلاة على انفراد من الرجال عادة ولا يحدث ان تسمى الزوجة أو الخادمة هذه الفريضة يوميا ولكن لم لاحظ بين الاطفال الذين هم دون الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من يصلى • وعندما تخرج المرأة من بيتها تكون كاملة الحجاب يصعب حتى على زوجها التعرف عليها •

والنساء اللواتى يمتتن بصلة الى العرب يرغبن كثيرا فى تزوين اجسادهن بالوشم ، فضلا عن تخضيب الشفة وهن يضعن علامات الوشم فى مختلف اعضاء الجسم وهناك بعض الجماعات أو الفنانين الذين لهم باع فى هذا النوع من الزينة والذين قضوا فترة من الزمن فى الدراسة والتبع بأساليب لا تقل عما هو متبع فى المعاهد الملكية للتحف والرسم فى اوربا •

ومن بين النساء اللائى يشاهدن فى بغداد بين الحين والآخر الجورجيات ( الكرجيات ) والجركسيات وهن ، مما لا شك فيه ، أجمل من حيث الطبيعة وجمالهن لا تشوبه الزينة المصطنعة • وفتيات المدينة من الطبقة العليا أقل جمالا وبشرتهم



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی